

النسق التاريخي والتخييلي

عند بنسالم حميش

حسن لشكر

كلية الآداب / القنيطرة

تحول التاريخ في الخطاب الروائي العربي الجديد إلى بؤرة سردية تحتزن التجربة الروائية وتسهم في بناء الأنساق الدلالية والرمزية وتغني مكوناتها ورهاناتها. الكاتب يوظف التاريخ ويطوعه لخدمة التخييل الروائي. سنحاول إبراز ذلك من خلال نموذجين دالين في هذا السياق: رواية "العلامة" ورواية "مجنون الحكم":

العلامة: استثمر بنسالم حميش في رواية "العلامة" (1) المادة التاريخية مصدرا للتخييل وإنتاج المعرفة التاريخية حيث تتبع-عن طريق الانتقاء- مراحل معينة من مسار وحياتة ابن خلدون منذ إقامته بالقاهرة وتوليه القضاء بها مرورا بسفوره لأداء مناسك الحج، ورجوعه إلى القاهرة واقتراانه بأم البنين ثم رحلته إلى دمشق.. وصولا إلى اللحظات الأخيرة من عمره. لكنه راهن على توسيع الفضاء السيري للعلامة بإفحام أنساق تخيلية بلورتها بعض الشخصيات كحمو الحيحي، أم البنين (ارتضاها زوجها له في أرض الغربة بعد وفاة زوجها الحيحي) هذه الأنساق التي كانت بمثابة بؤر إشعاعات تخيلية وعناصر إضاءة وكشف للشروط التاريخي المأزوم خارج مواضع الرواية التقليدية.

لم يبق حميش في حدود الأفق المسيحي لما هو سيري (استحضار تاريخي لسيرة ابن خلدون خلال نهاية القرن الثامن للهجرة)، بل قدم، أيضا، خطابا روائيا في تحولاته السردية والحكاية لإضاءة الماضي وتقوية روابط الصلة به. وبالإضافة لما سلف تتميز رواية "العلامة" بالمظاهر السردية التالية:

-خطبة الأحداث وتتابع الوحدات السردية.

-اشتغال الدوال اللغوية على خلفية الأسلوب القلم والاحتكام إلى الطابع التسجيلي.

- تتويج النص وتسييجه بنصوص مقتطفة من مصادر تاريخية: "يسعى نص "العلامة" إلى استضمام زمن عربي متكرر ومستمر إلى الآن، بالخصوص في مستوى القيم السائدة من منظور المصالح الفردية وإلغاء المجتمعات بالعسف وتبسطها الرواية في مستويات السيرة ومتخيلها الروائي : مستوى يتتبع سيرة الفكرة ومغامرة الوعي بالتاريخ وأسبابه يتجلى في نص الرواية ضمن حوارات ابن خلدون مع كاتبه حمو الحيحي الغرض منها هو نقد الظواهر التاريخية وتمثلها الذهنية والفكرية لدى المؤرخين والساسة والمجتمع. وهناك مستوى يرسم الوعي الذاتي لابن خلدون كإنسان في عاطفته وصلته بماضيه ومواطنه وحينه إلى بلده المغرب وفي مغامرته الصوفية. وفي مستوى آخر يساهم في بناء الرأي وبلورة الأحداث السياسية-التاريخية مع الحكام ومع تيمور الأعرج" (2).

إن رواية "العلامة" ككتابة وهندسة روائية مفتوحة على التاريخ تروم إعادة تركيب حياة ابن خلدون من أجل سبر أغوار التاريخ ورصد وتشخيص منطقه، كما تبلور ذلك الشواهد التالية :
- "لابد للتاريخ من بذرة أحسن وأرقى حتى يبدل جلده ومجره، وإلا فلا اشتغال للعبرة فيه، ولا تقدم يرجى من تعاقبه وسيره" (ص64).

- "حسي أن أعلن الآن أن رأس الداء يكمن في العصبية، طبيعية كانت أم مصطنعة. القبيلة في السلطة والسياسة العامة، تلك هي المعضلة" (ص 66).

- "التاريخ كالسرداب سبله متقاطعة ملتوية لا مخرج من بعضها إلا إلى بعض، ولا راحة فيها لمن ابتلي بالنظر والتحقيق إلا بقضاء النحب" (ص 168).

إن المنطق المحرك للتاريخ - حسب هذه الشواهد - هو التبدل وإلغاء القبيلة الحديثة والتشابك. لذلك ينبغي التأمل والتحقيق فيه رغم الإكراهات، ويكمن - بالموازاة - المنطق المحرك لإستراتيجية النص في الرغبة في تأصيل الكتابة الروائية وتوسيع دائرة التخييل : "حيث تصهر سيرة عبد الرحمان بن خلدون مستوى القصة والخطاب وترهينه على التردد بين الواقعي والتخييلي في الإحالة على المواقف والمواقع والوقائع" (3).

معنى هذا أن رواية "العلامة": "اعتمدت على الكتابة الإبداعية الروائية لـ "سيرة" ابن خلدون. إلا أنها كتابة ذات نفس تجريبي تؤكد أن مؤلفها كتبها انطلاقا من وعي قائم بضرورة إعادة كتابة التاريخ إبداعيا خارج الأعراف والسنن المألوفة، ووفق إستراتيجية نقدية لتطور الجنس الروائي وجماليات الكتابة السردية" (4).

يراهن حميش على تحديث المعمار الروائي، ولكن عن طريق "التأصيل" والاحتكام للموروث الثقافي العربي لأن الكتابة الأصيلية، في اعتقاده: "لا يمكنها إلا أن تتفاعل مع مناطق الأصول وما أفرزه التاريخ من أشكال وأساليب كتابية لا لاجترارها واستنساخها، بل لوضعها على محك التغيير وإثرائها بقيم الحدائث المضافة. إن المسكون بماحس الإبداع، وبهذا الهاجس أولاً وأخيراً، تراه ينظر إلى التراث المعرفي على أنه مادة خام وهيولى أو موضوع شاسع قابل لحمل الصور، لأنه يتحول قطاعياً إلى تحف ولوحات، وذلك عبر قدرات الكاتب الاستيعابية والتخييلية"⁽⁵⁾.

لذلك عمد إلى توسيع آفاق نصه ومساحات نفوذه باستدراج نصوص متعددة (شعر - نصوص قرآنية - أحاديث نبوية - رسالة) معتبرا إياها أوعية متعددة متماسكة يفضي بعضها إلى بعض لتلقي الضوء على بعض النقائص: "إني في المعرفة ذو أخطاء وفي السياسة كمن يكثر الحز ويخطئ الفصل، ولا كمال لمن انتمى إلى زمن أفسد من السوس" (ص:41). وتجلي تفاصيل المأساة: "السنه لاحقتني حتى تخلت عن خطة القضاء، وهي الآن تروم عزلي عن التدريس، لكن حمدا لله على كل مكروه" (ص72)، كما ييلور صيغ التكالب: "التكالب ضده تصاعد بشكل مسعور مصحوبا بالقذف والتشهير" (ص87). ويصور مأساوية المال: "طبيعي أن موت أهلي كلهم غرقا في البحر كان وقعه علي من الشدة والعنف بحيث أصابني بالخرس المحزون الأبلغ من أي كلام" (ص78) كما يشخص قسوة الزمن: "زماننا زمان القسوة البليغة، يحفل حقا بوفرة الوسائل في التعذيب والبطش من ذبح وتعريق وطعن وبعج وخنق وتسميم وتقطيع الأعضاء وجز الرؤوس" (ص80). وقد شكل زواجه بأم البنين نقطة تحول في حياته: "تحول الوجود عندي من عسرهِ وُثقاله المعهودة إلى دوائر الخفة واليسر" (ص: 118).

التاريخ، هنا، مجرد نافذة سردية لقراءة الحاضر، ففي هذا المنعطف يتحرر الروائي من قيود التاريخ وسحره، فيتولد الانسياب التدريجي للمعنى الروائي واحتمالاته.

مجنون الحكم: قد سبق لحميش أن اتبع الإستراتيجية نفسها في "مجنون الحكم" (6) حيث تتبع حياة الحاكم بأمر الله، وحاول رصد وتقصي حقائقها المغيبة بلغة تستمد عناصرها من مناخ تلك الفترة الغابرة من تاريخ مصر.

استثمر حميش في هذه الرواية المادة والمصادر التاريخية، إلا أنه أغنى النسق التاريخي بآفاق تخيلية، وبذلك غادر الزمن التاريخي ليقترحم الزمن الروائي: "حقا لقد صنع حميش تاريخا روائيا ارتكازا

على مخيلة جامحة وتراث عربي منقى بدقة، فأنار ردهات واكتشف مجاهيل" (7). أي إن التخييل احتوى الإسناد الخبري التاريخي من أجل إعادة تشكله بمستوى دلالي خاص ينادي التراثي الممزوج بالشعري والتاريخي والأسطوري: "وما بين السيرة التاريخية والهيم الروائي يجهد حميش متأرجحا نحو الثاني (الروائي)، متكنا على أخبار المؤرخين كأنما لإسباغ الصدق على الحكمة، أو لمراكمة سياق يتسلل حتى إنتاج رواية مكتملة المعنى توخت مونتاج مسيرة الحاكم بأمر الله وسيلة لتبيان ما حصل وجرى له وحوله وعليه" (8).

لقد تم تشييد التخييل، في هذه الرواية على ضوء عدد مهم من المصادر (أثبتها المؤلف في الصفحات الأربع الأخيرة) وذلك لرؤية الحاضر عبر مرآة الماضي: "إنه" مجهود واضح في استيعاب فترة حكم الحاكم بأمر الله، وإسقاط الحاضر عليه، وهو استيعاب للموضوع كما هو للأسلوب. وهو لا يلتزم الغالب التقليدي للرواية التاريخية، إذ يتراوح الشد الروائي بين اللوحات القصصية حيناً والتسلسل الروائي حيناً آخر، تتخللها مقاطع بأقلام مؤرخي تلك الفترة، مما يضيف على العمل الروائي عبق التاريخ، فيتضافر الموضوع والأسلوب والشكل في تقديم عمل في متكامل" (9).

هناك تناغم واتساق بين السرد التاريخي المتكئ على نصوص وإحالات من مصادر ومراجع تاريخية وعلى لغة المؤرخين القدماء، وبين لغة الكاتب المحاكية لما تضطلع بوظيفة التهجين والباروديا وتفجير السخرية" (10).

هكذا صاغ المؤلف رواية تاريخية فلسفية تقرأ الحاضر بالماضي. فالتاريخ والفلسفة يندغمان هنا لصياغة فضاء روائي له نكهة خاصة، يقول حميش في هذا الصدد: "إن الفواصل بين الرواية والفلسفة من جهة، وبين الرواية والتاريخ من جهة ثانية، لمي أضعف من خيوط العنكبوت. وهكذا كونت لنفسها بوصلة سميتها الرواية التاريخية - الفلسفية وصرت بها أختار وأنتقي، وعليها أعول لتنظيم قراءاتي ومحاولة التغلب على ثغراتي في مجال تمثل واستيعاب الأعمال الروائية الكبرى" (11).

كما تندغم عدة أجناس متخللة في النسيج الروائي لإثراء النسق الروائي وتخصيب مكوناته، يقول حميش في هذا الإطار: "بالنسبة إلى علاقة التاريخ بالرواية، وعلاقة الحكيم بالحوار المسرحي وما إلى ذلك. فهذه الأجناس متداخلة متكاملة، ولا يمكن إذا ما استعملت بقدر من الذكاء والفطنة إلا أن تغني العمل الأدبي عموماً (..). أقيم بجوار الاختيار الداعي إلى الرواية ككتابة تجريبية كلية تتحرك في حضم الحياة والأشياء، وبالتالي في ملتقى وتقاطع الأجناس" (12).

لم يكن حميش منشغلا في رواية "مجنون الحكم" بوصف تاريخ مأساوي مضى وانقضى، ولكن كان منشغلا بإبراز امتداداته وصوره في التاريخ الحديث.

فالتاريخ، هنا، مجرد قناع لقراءة الحاضر وإن كان لا يلغي المرجع التاريخي وإحالاته التعيينية. كما أنه غدا موضوعا للتخييل وتخصيب الذاكرة الروائية حيث: "لا ترتبط الرواية بالتاريخ لتعيد التعبير عما قاله التاريخ بلغة أخرى، بل قد ترتبط بالتاريخ للتعبير عما لا يقوله التاريخ" (13). ولعل السمة الأكثر بروزا، في هذه الرواية - فضلا عن اللغة التي تمتح من المدونة التاريخية - تتجلى في تعدد الخطابات المسخرة لتشديد الحقول الدلالية والمعجمية وثرأ المعجم والأساليب (منشورات - وثائق تاريخية - مراسيم - سجلات - نداء - عرائض - آيات قرآنية - أحاديث نبوية - شعر... الخ)

إن التخييل التاريخي أصبح تشكيلا حكايا مفتحا يتخذ مرجعيته من التاريخ، ولكنه يوازيه - أدبيا - ولا يحاكيه: "ليست هذه رواية تاريخية بالمعنى الذي قصده والتر سكوت أو ألكسندر دوما. إنها رواية عن عصرنا هذا اتخذت ثوب التاريخ، لكن المؤلف فصله بتقنيات الحداثة والحساسية الجديدة" (14).

خاصة أن تقنية التناس أعطت النص طابعا متميزا مفتحا على آفاق متعددة: "فمن الملاحظ أن الروائي هنا حرص على الإفادة من التراث.. تراث التاريخ والرحالة العرب، فضلا عن عديد من المصادر المعاصرة، التي تعكس فضاء الرواية كدوائر المعارف وبعض السير والتراجم، وبعض كتب الأدب، وكلها تتناس على أكثر من مستوى (15).

تأسيسا على ما سلف يمكن القول إن التخييل هو القاعدة التي ارتكز عليها المؤلف لبناء رواية واقعية-تاريخية محملة بمحاسن فلسفي/سياسي.

لقد رصد حميش، في هذه الرواية سيرة الحاكم بأمر الله النفسية (مصاب بفساد الفكر والمنحوليا التي اشتدت وطأها عليه) والسياسية، فتدبير الحكم وتسيير دواليبه يعتمد عنده على الاستبداد والتدمير والعنف والغدر، كما توضح ذلك الفقرات الحكائية التالية:

1- "سيقول المؤرخون الوعاظ وأكلو لحم الميت: إني، أنا الحاكم بأمر الله. كنت أرهق العباد حيرة وطغيانا، وكنت سفاكا للدماء، وكنت المحنة الكبرى والبلاء. ولو عرف هؤلاء المتقولون كنه التاريخ بما هو تاريخ، تصنعه سلطات السيف وأحجام الشدائد والآلام، لأدر كوني وأدركوا أن من طبيعة السياسة الاستبداد، ومن صفات الاستبداد التوجس والحذر، وإعمال العنف الوقائي" (ص : 18).

2- "لا وحق حرمي، لن تجدوا عندي لهزمكم إلا العنف في أسمى آياته والغدر الخالص" (ص37).
 3- "وحق العين التي لا تنام، لا بد لكم من استبدادي ومن جريان سيفي بينكم شفاء لكم من الظلم ووقاية، وحتى تظل مصر كما كانت وأبتغيها: لا يقطنها إلا راع ورعية. فاتقوني ولا تطلبوا مني. إني لأفعالكم ونواياكم بالمرصاد، التقط بالتحسس والسهر أسوأها وأعتمها، وأحققها محققاً" (ص : 23).
 وقد عانى من هذه السياسة المقربون والأبعاد على حد سواء، كما طالت العلماء كالحسن بن الهيثم (ص: 85) والمتصوفة (خالع النعلين، مثلاً، ص : 90) والقضاة (تخريق ابن النعمان) والثوار (أبو ركوثة..) والبلدان (حرق وهب مصر)..

ونحن نتأمل هذه الفقرات يتبين لنا المغزى من الرجوع إلى التاريخ. فما أشبه الماضي بالحاضر، وكأن التاريخ العربي دائرة مغلقة تكرر نفسها باستمرار.

إذن فالتاريخ لا معنى له هنا إلا إذا ربطناه، سياقياً، بواقعنا المعاصر: "إن رواية "مجنون الحكم" لا تقدم لنا رواية تاريخية، وإنما تقدم لنا صيغة روائية تعتمد على الحس التاريخي في تناول لموضوع السلطة والحكم في العالم العربي، من خلال أحد الشواهد التاريخية، ذلك لأن التاريخ هنا حاضر بوصفه جزءاً من الواقع ويعبر عن الصيرورة التي تؤول إليها كلية الواقع نتيجة لطبيعة السلطة وانتقالها" (16).
 كخلاصة نقول إن هذه الرواية تنكئ على التاريخ مرجعاً له بعد فلسفي لبناء نسق روائي منفتح وخصب، إذ تعد نسقاً إبداعياً وخصباً يدافع: "عن حقيقة الخيال ضد ثغرات وافترادات وبياضات مصنفات التأريخ المسخرة من طرف أقطاب الدوغمائية الرسمية ومحوري برامجهم الثقافية. وفي فصول الرواية تتناوب الإخبارية والباروديا عبر سرود تخيلية، ولكنها متأصلة في التراث الأدبي والشعبي العربي" (17).

وقد أفسح بنسالم حميش في روايته مجالاً للسخرية لصياغة نوع من التهكم على الأوضاع الفاسدة. فـ "مجنون الحكم" - زاحرة بالمشاهد الساحرة. وهذه بعض النماذج:
 - "و"حَقُّ العين التي لا تنام، لا بد لكم من استبدادي ومن جريان سيفي بينكم شفاء لكم من الظلمة ووقاية، وحتى تظل مصر كما كانت وأبتغيها: لا يقطنها إلا راع ورعية(ص23).
 - "و" في السنة الخامسة من ربع قرن الحاكم صدر بنقش ختمه مرسوم ضد الكلاب، ومما أتى فيه نصه: وأما الكلاب - إلا ما كان منها للصيد. فأقبلوا عيثاري منها واقطعوا دابرها من كل ربوعي وأحيائي. فإني لا أطيق رؤية أحط الحيوانات منزلة، وأبعدها عن أخلاق التقلب والضد، وأكثرها تحملاً لأعباء التزلف والوفاء" (ص33).

- "أما المغنون فعَلَيَّ بنفيهم. إن شعبي رَقَّاصٌ بطبعه. فما الحاجة إلى من يُزَمُّ له ويغني" (ص: 46).
 لقد أضفت هذه المقاطع على النص طابع السخرية، وهي تبرز بعض عناصر استبداد الحاكم بأمر الله
 وطبيعة شخصيته المليئة بالمتناقضات: "وكان جوادا سمحا، خبيثا ماكرا، رديء الاعتقاد، سفاكا
 للدماء. قتل عدد كبيرا من كبراء دولته صبورا" الحافظي الذهبي، تاريخ الإسلام، الرواية. (ص: 9).
 لقد كثرت تناقضاته واستفحلت أمراضه النفسية (أفعاله لا تُعَلَّلُ وأحلامه وسواسه لا تؤول
 (ص: 9). هكذا حاكى الكاتب لغة المصادر والمراجع التاريخية وجعلها: "تضطلع بوظيفة التهجين
 والباروديا وتفجير السخرية" (18). فأفسح للسخرية مجالات متعددة في النص لصياغة نوع من التهكم
 على شخصية الحاكم بأمر الله وعلى الأوضاع الفاسدة.
 السخرية -بهذا المعنى- لم تعد فقط وسيلة للتسلية؛ بل أضحت إطارا تدرج ضمنه المشاكل
 السياسية والنفسية والإبدالات السردية والترهينات الحكائية.

هوامش

- 1-العلامة : دار الآداب. بيروت 1997.
- 2-يوسف ناوري : "عن رواية العلامة لبنسالم حميش" الملحق الثقافي لجريدة الاتحاد الاشتراكي. 26 دجنبر 1997. ص : 5.
- 3-عبد الفتاح الحميري : "هل لدينا رواية تاريخية" فصول. عدد 3 شتاء 1997. ص : 65.
- 4-محمد علوط : "الكتابة التاريخية من متطور نقدي" الصحراء المغربية. عدد 3985. السبت 18 دجنبر 1999. ص : 7.
- 5-سالم حميش : "ثقافة الرواية" (شهادة) العلم الثقافي 25 أبريل 1998. ص : 7.
- 6-سالم حميش : مجنون الحكم. رياض الريس للكتب والنشر. لندن. 1990.
- 7-حنان حاسم الحلاوي : مجنون الحكم" الاتحاد الاشتراكي 5 غشت 1994. ص : 5. 8-المرجع نفسه.
- 9-يوسف الشاروني : الغلاف الأخير لرواية مجنون الحكم.
- 10-محمد برادة : الغلاف الأخير للرواية.
- 11-سالم حميش : "ثقافة الرواية" (شهادة) العلم الثقافي 25 أبريل 1998. ص : 7. 12-المرجع نفسه.
- 13-عبد الفتاح الحميري : "هل لدينا رواية تاريخية" ص : 66.
- 14-فاطمة موسى محمود : "تعدد الأصوات في الرواية الحديثة قراءة في أوراق ومجنون الحكم" ضمن لقاء الرواية المغربية. المجلس الأعلى للثقافة (مصر) 1998. ص : 293.
- 15-مصطفى عبد الغني : قضايا الرواية العربية. الدار المصرية اللبنانية 1999. ص : 107.
- 16-رمضان بسطا ويسى محمد : "حصار السلطة وممكنات الحياة" ضمن أبحاث ملتقى الرواية المصرية المغربية الثاني. ص : 176.
- 17-خوان غوفيسولو : "مقدمة ترجمة رواية مجنون الحكم" إلى الإسبانية مثبتة في رواية بروطا بوراس ياناس سلسلة شراع (إبداع)
 عدد 4 غشت 1998. ص : 6.
- 18-محمد برادة : الغلاف الخيرة للرواية.